دعم الخلق فى الأسرة

للأستاذ محمد مصطفى عطا

قد يكون من العبث أن نأخذ فى الحديث عن دعم الخلق فى الأسرة قبل أن نهيئ لها عوامل الاستقرار والطمأنينة، وذلك بأن تحيا حياة تمكنها من العيش والإحساس بالإنسانية.

ولست أدرى كيف يشيع الأمن والاستقرار فى أسرة يعولها رب يظل يكدح ويجاهد ولا يظفر إلا بما يمسك الرمق ويقيم الأود ولكن أنى له بالمسكن ؟ وأنى له بالكساء ؟ وأنى له بتعليم أبنائه والإنفاق عليهم وأنى له بتوفير الصحة لهم ؟ وأنى ... وأنى ... مما يجعله يعيش عيشة الإنسان الذى يحس ويشعر ويرى ويسمع ويعيش ويأمل، إنه ليحس أنه مهضوم الحق مهيض الجناح، إذ يرى إنسانا فى الدولة يتقاضى راتبا يبلغ المائتين من الجنيهات يعيش عيشة البذخ والتنعم وهو لا يتجاوز راتبه مائتى قرش، فرق شاسع بين بضع قروش وبين عشرات الجنيهات !!

أظن أن هذه الحال لا تؤدى الى استقرار بل تطبع هذه الأسرة بطابع التمرد والثورة النفسية ويخيم عليها التشاؤم والسخط على المجتمع، ومن ثم يعيث أفرادها فى الأرض فسادا يرتكبون الجرائم ويقوضون دعائم المجتمع الذى يعمد إلى تعذيبهم وإيلامهم ومطاردتهم من غير أن يبحث أحوالهم ومصادر شرورهم وآثامهم .

وإنى هنا لا أزيد النار اشتعالا والثورة اشتدادا ولكن أدعو الى إنامة الفتنة والقضاء على جراثيمها وأصولها بتحديد الملكية الزراعية وفرض الضرائب التصاعدية على ثروات الأغنياء وذوى الدخل الكبير من أرباب المهن الحرة، وأداء الزكاة التى هى حق للسائل والمحروم، ورفع الضريبة الجمركية على الواردات الأجنبية من الكماليات وفرض الضرائب على التركات الكبيرة، وإعفاء صغار الملاك وذوى الدخل الصغير من الضرائب، وصرف العلاوات الاجتماعية لذى الولد والولدين والثلاثة، وإصدار القوانين لتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر والأجير، وبين العامل وصاحب العمل وتشييد المؤسسات الاجتماعية والصحية لمحاربة المرض والفقر والجهل، وأخذ الدولة بأسباب الصناعة وحماية المصنوعات الوطنية وتشجيعها، وقيام الأندية الاجتماعية والدينية ببذل جهودها وحشد شبابها للتخفيف من هذه العقابيل والأمراض .

وإنا لنحيي هذه الحرب الحاضرة التى أيقظت الرحمة فى نفوس القادة والزعماء، فكان مشروع بيفردج فى انجلترا ومشروعات أخرى ظهرت فى أمريكا جلت فى كل بلد من بلاد العالم المتمدين للقضاء على هذه الأمراض الثلاثة، ونرجو أن يكون لهذه الدعوات صدى فى بلاد الشرق الموبوءة بهذه الأوبئة الفتاكة .

ومما يوقظ الفتنة فى الأسرة تعدد الزوجات وبخاصة فى الأوساط الفقيرة ، فكل زوجة تعمل على الكيد للأخرى والوقيعة بها وإحداث الشغب فى المنزل مما يحمل الزوج على الفرار منه إلى المقهى أو دور اللهو والخلاعة ، ثم يتجاوز الأمر ذلك إلى العداوات والخصومات التى تشب بين أهليهم وأبنائهم وإيجاد التفرقة والسخائم والاحن بين العشائر والأسر مما يهدد الأمن وينغص الحياة الزوجية .

وإذا أمعنا النظر فى الدين الإسلامى وجدناه يقف من هذه المسألة موقف العدل وبعد النظر، وإن كنا أسأنا تأويل أحكامه وتفسيرها وجعلنا خصوصيات النبى عليه السلام عمادا نعتمد عليه وأصلا نستمد منه، فقول الله تعالى بعد إباحة التعدد "فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة"، وضع للأمور فى نصابها، فكيف يستطيع الإنسان العدل المطلق والحكم النزيه مع قيام الكيد والدس وسيطرة المشاعر الإنسانية، بل إن آية الزواج لتشير إلى هذا تلميحا أبلغ من التصريح فى قوله تعالى "ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفاكرون" .

أما الإباحة فلا بد منها لأن هناك حالات لايجدى فيها قيام الزوجية كشدة المرض مدة طويلة والعقم والالتواء الخلقى وعدم الانسجام .

وأعتقد أن المرجع الأول لنشر الطلاق هو عدم تمسكنا بديننا الحنيف ورؤية الفتاة قبل العقد مع أنه يمكننا التغلب على هذه الصعوبة بتهيئة الفرص لتمكين الشاب من رؤية الفتاة والتحدث إليها عن طريق تزاور الأسر وأظن أن هذا طريق لاغبار عليه ويتفق وعادات المحافظين ، وإنه ليشجع الفتيان على الزواج المبكر ويحد من كثرة الطلاق الذى ينشأ عن جهل كل من الزوجين بالآخر وعدم تآلفهما وانسجامهما " والأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف" .

والغريب أن علم النفس الحديث يوجب هذا التعارف قبل الزواج ويحتمه ، استمع إلى قول الأستاذ ماندر فى هذا الصدد "يجب ألا تبلغ غرائز الزواج غايتها الاصلية حتى يكمل عمل المغازلة أى حتى تنجح أعمال التودد فى أن يؤثر فى الجانب الآخر لهفة متعادلة وحماسة متكافئة ولا يكفى لذلك مجرد الإذعان ، وكل تزاوج لاتسبقه مغازلة فعالة يتنافس مع الطبيعة ويعجز حتما عن إشباع الرغبة الجنسية بل وقد يؤدى إلى النفور .

وهناك أمر آخر يجب أن يلتفت إليه الآباء حتى لايوقعوا الخلاف والخصومات بين أبنائهم وذلك بعدم التفرقة بينهم وإيثار أحد على آخر أو قتى على فتاة فى الملبس والمأكل والمصروفات والعطف فأكثر العقد النفسية تنشأ عن هذه التفرقة .

وأن يجعلوا منازلهم سكنا لنفوس أبنائهم بتهيئة وسائل التسلية البريئة من اللعب المختلفة كالنرد والشطرنج والكتب الملائمة لأسنانهم وميولهم وغير المقررة فى مدارسهم حتى لا يفروا منها إلى مصاحبة رفاق السوء أو سلوك السبل الملتوية .

وأن يفرقوا بين الذكور والإناث فى المضاجع ، وبينهم و بين أبنائهم و إن كان الأخيرون صغارا حتى لا يثيروا فيهم تلك الغريزة الهوجاء — الغريزة الجنسية — قبل نضجها

وأن تكون عين الزوجين ساهرة على الخدم إذ كل هؤلاء الآن من الطبقات الدون التى لم تردعها تربية ولا دين ؛ فكثيرا ما يتهزون الفرص و يخلون إلى الصغار أو المراهقين ليشبعوا غرائزهم الجنسية فى غير تورع أو حياء .

و إنى لأرجع أكثر الفساد الخلقى فى الأمر الى هذه الأنواع الخبيثة التى تكون عوامل هدامة فى كيانها ، وما دامت هذه المشكلة لم تحل بعد فلنراقبهم جيدا ولا ندع لهم أية فرصة ليخلوا فيها الى الصغار أو المراهقين وأن ندقق فى اختيارهم و إن سخطنا أجورهم فالخسارة المادية ضئيلة إذا وازناها بالخسارة الروحية .

وأن تراقب الفتاة أو الفتى فلا يترك لهما الحبل على الغارب فاذا خرجت الفتاة صحبها أخوها أو أبوها أو أمها ، وأن يحاسب الفتى على مواعيده فلا يترك له المجال فى التأخر فى العودة الى منزله ليلا ، وأن تغرس عادة النوم المبكر فى نفوس الأبناء ، فكثير من الزلات والسقطات للفتى أو الفتاة إنما ترجع الى انعدام الرقابة أو تستر الأمهات على الأبناء أو القدوة السيئة من الوالدين .

وأن يجتنب الزوجان الخلاف على تربية طفلهما أمامه ، فاذا لام أحدهما الطفل على تصرف من التصرفات فليس على الآخر أن ينتقص من هذا اللوم أو يقلل من شأنه بأن يحتضن الطفل أو يلومه على ما بدر منه ، فالتعاون بين الزوجين يجب أن يسود جو الأسرة حتى لا يبلبل عقل الطفل أولا يعبأ بما يوجه اليه من مؤاخذة فيما بعد وقد رئى أن أكثر الأطفال المضطربين كان آباؤهم مختلفين على تربيتهم وتوجيههم وربما قام الأقارب بمثل هذا الدور إذ ينتقدون تصرفات الآباء مع أولادهم أمام هؤلاء الأولاد ، أو يؤوونهم فى منازلهم فلا يمكنون آباءهم من مؤاخذتهم .

وأن يعامل الزوج زوجه معاملة رفيعة تقوم على الاحترام والعطف لا أن ينظر اليها النظرة البدائية ، نظرية السيد للمسود أو النظرة البدائية البهيمية من أن المرأة ليست إلا للافتراش ، وأن يقيم لرأيها وزنا ويحافظ على كرامتها ، وأن يكون مهذبا فى خطابه وحديثه فلا يخلع برقع الحياء ، فان ذلك يؤدى الى الأسفاف والقحة ، فالخصومات والفرقة .

هذا السلوك المهذب له أثره كذلك فى الأبناء فيشبون عليه ويختفى من محيطنا هذه اللذة الحيوانية التى نكرس لها جهودنا ، والتى أصبحت غايتنا توجه أعمالنا وسلوكنا .

لقد فقدنا البطولة فى ميادين الفتح والغزو والمال والعلم فاستعضنا عنها بالبطولة فى هذا الميدان وأهون به من ميدان !

وناحية أخرى لها خطرها ولا نكاد نتنسمها فى جونا ، تلك هى رقة العواطف أو سمو الوجدان ، فالحب دعاه الشهوة والصداقة لا تكون إلا لمنفعة ، والوفاء لغاية ، ومواقف اللقاء والوداع جامدة ، والتراسل بين الزوجين المفرقين لا تنبض بالحرقة والحنين ، ومحبة الوالدين واهنة ومعاملة الخدم قاسية .

فتبا دواعى هذه الموجة الزاحفة .

إذا كانت أخلاقنا عاداتنا فدواعى هذه المادية أننا لم نعود منذ الصغر ولم ننشأ فى جو مشبع بثراء الروح فلم نذق أو نشاهد الحب الخالص والصداقة السامية والوفاء المثمر والتعبير عن خلجات النفوس وحرارة الأكباد تعبيرا صادقا ليس فيه رياء أو تصنع ؛ والاخذ بيد الضعيف والبائس والمحروم .

فما أحرى الآباء والمعلمين والكتاب أن يكونوا المثل الأعلى والأسوة الحسنة فيما يسلكون أو يتحدثون أو يكتبون .

وأن يمهد الآباء الطريق لاستقلال أبنائهم الكبار وتهوضهم بالمسؤولية بأن يجعلوا لكل حجرة خاصة أو مكتبا خاصا ، وأن يعهدوا الى الفتاة بمساعدة أمها فى الطهو والكى والغسل والانفاق على المنزل ، والى الفتى بشراء بعض ما يلزم البيت وإصلاح ما فسد من أدواته وبهذا يعملون على تنظيمهم النفسانى ، وأن يمنحوهم الحرية — حرية التفكير والتصرف والاتجاه والسلوك فى حدود السلطة الأبوية التى أشرنا إليها فانى أذهب مذهب دؤلاء المربين الحديثين الذين ينزعون هذا المنزع ويدافعون عنه فى حدود الممكن لتقوية الشخصية والإفادة من التجاريب .

وإذا تهيأ الزواج للفتى فعلى الآباء أن يعملوا على إقامة العروس فى مسكن مستقل حتى لا نرى هذه العداوات والقلاقل والطلاق وبعض الزوج لحميها وتحريض زوجها عليهما فالزوج بغريزتها تعمل على السيطرة على بيت زوجها والأم ترى فى النزول عن سيادتها خدشا لكرامتها ، وتعديا على حقوقها مما يؤدى الى إتساع شقة الخلاف واستحكام العداء .

محمد مصطفى عطا

أستاذ التربية وعلم النفس فى برقة